القاضي الجرجاني وقضية السرقات

مدخل :

لقد مر بنا ما اثاره ابو تمام من حركة نقدية بين معاصريه الذين اتوا بعده بسبب ولوعه بالبديع . واغراقه فيه مما عد فيه خارجا على عمود الشعر العربي . فنشطت الحركة النقدية لتثبيت قواعد عمود الشعر . ولتوازن بين اشعار هذا الشاعر . وأشعار معاصره البحتري . فتشكل اشعارهما موازنة بين الشعر المطبوع السائر على طريقة الاوائل والشعر الذي يميل الى التجديد والابتكار اللذين عدا خروجا على النهج الشعري المعروف .

ويبرز المتنبي في القرن الرابع شاعراً شامخا بشعره وشخصيته المتفردة وكبريائه المعروف . فتثير اشعاره حركة نقدية اوسع من حركة سالفه ابي تمام وتشغل الناس خصومه والمعجبين به . ويلتف حوله في زمانه شعراء . وادباء يعجبون به امثال ابي الفرج الببغاء . وابن نباته . وعلي بن دينار والعالم اللغوي ابن جني . ويذكر الثعالبي ان هؤلاء كانوا يقرأون اشعاره . ويتدارسونها معه(٥٨) ويناوؤه شعراء اخرون فينظرون اليه بحقد وغيره لما احتلته اشعاره من مكانة كبيرة في مجالس سيف الدولة خاصة . ويبرز في مقدمة مناوئيه ابو فراس الحمداني الامير الشاعر

---

(٥٨) يتيمة الدهر ، ١ / ١٠٨ ، ٣٣٠ ، ٢٣٦

الذي عز عليه اعجاب سيف الدولة بالمتنبي من جهة وترفع الاخر عن مديحه وهو الامير من جهة اخرى . ويجمع أبو فراس حوله عصبة من الامراء حاولوا البحث عن مساوىء شعر المتنبي .(٥٩)

وحين ينتقل المتنبي من حلب الى مصر وبغداد وغيرهما من المدن العربية تتجدد الحركة النقدية حوله فمن معجبين به الى آخرين اثارتهم شخصية المتنبي فتمنوا ان يكونوا من ممدوحيه ، فلما واجههم المتنبي بترفعه عن مدح من هم دون الملوك راحوا يوجهون اليه التهم والمطاعن ، ويبحثون عن المساوىء في اشعاره . ويبرز في مقدمة هؤلاء الوزير المهلبي في العراق الذي جمع حوله الشعراء والادباء ليحصوا على المتنبي عيوبه ، ويدفع المهلبي اديبا معاصرا له ليؤلف كتابا يتحامل فيه على المتنبي وهو الحاتمي الا ان كتابه الذي سماه بالرسالة الحاتمية يختص بالتحامل على المتنبي من خلال ماسماه بسرقاته .

وينتقل المتنبي في ارجاء العالم الاسلامي ، ويتجدد محبوه وخصومه فيطمع الصاحب بن عباد في ان يكون من ممدوحي هذا الشاعر . فيكتب اليه يلاطفه ويستدعيه ويضمن له مشاطرته جميع ماله . فلم يقم له المتنبي وزنا . ولم يجبه عن كتابه فيتصدى الصاحب له . ويؤلف بنفسه كتابا سماه (الكشف عن مساوىء المتنبي) .

كتاب الوساطة :

ويذكر الثعالبي ان القاضي الجرجاني عمل كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه بعد ان وضع الصاحب بن عباد رسالته في اظهار مساوىء المتنبي .(٦٠)

وهكذا يبرز كتاب الوساطة من عنوانه الذي اختاره له مؤلفه ليكون حكما وسيطا بين المعجبين بالمتنبي ، والطاعنين عليه ، وقد دفعه الى تأليف هذا الكتاب مارآه من تعصب الفريقين وابتعادهما عن الصواب فالمعجبون به يلهجون بذكره . ويشيعون محاسنه فأن رأوا في شعره مايعيب راحوا يبحثون عما ينتصر له ويحسن خطأه وزلله واما الطاعنون عليه فهم يجتهدون في اخفاء فضائله ، واظهار معايبه لابعاده عن مكانته التي يراها الناس له . وكلا الفريقين كما يقول القاضي

---

(٥٩) نفسه ١ / ٩٥

(٦٠) اليتيمة ٤ / ٤

الجرجاني (اما ظالم له او للادب فيه) فرأى القاضي الجرجاني اذن لايكون منذ البداية مع واحد من الفريقين ، ليبعد عن نفسه تهمة التعصب ، وليصل بنا الى الحكم المتآني والقناعة المطلقة بعد استيفاء جميع الادلة والتهم .

لقد حاول القاضي الجرجاني منذ البداية ان يبسيط التهم ، ويوضحها بالادلة والشواهد لكلا الفريقين فيبدو لنا فعلا قاضيا عدلا ـ كما مارس القضاء في حياته اليومية ـ فاما الدفاع عن الاخطاء ، ومحاولة تسويغها فخطأ كبير ، وظلم لانه يخالف الطبيعة البشرية ، فأن وجدت في اشعار المتنبي مأخذ واخطاء فذلك أمر طبيعي ، لان من حق المتنبي اولا يطالب بالكمال (وليس يطالب اكثر بما ليس من طبع البشر ، ولا يلتمس عند الادمي الا ماكان في طبيعة ولد آدم)(٦١)

واما محاولة الفريق المتعصب ضد المتنبي والجامع لاخطائه وعيوبه فظلم ايضا ، لان شواهد اشعار المتنبي الجيدة الرائعة شامخة معلومة (وللفضل اثار ظاهرة وللتقدم شواهد صادقة فمتى وجدت تلك الاثار ، وشوهد هذه الشواهد فصاحبها فاضل متقدم(٦٢)

من هنا يبدأ القاضي الجرجاني بعرض التهم الموجهة لاشعار المتنبي معتمدا على المقايسة والمقارنة موسعا صدره لسماع المطاعن الموجهة الى المتنبي فيرسخ لنا من خلال ذلك دراسة قضية نقدية مهمة هي ظاهرة التفاوت الموجودة في اشعار الشعراء ويعني بها انه لايمكن ان نجد شعر الشاعر على نمط واحد من الاجادة والابداع سواء في قصائده الى جانب المتفرقة او في القصيدة الواحدة ، وهذا يوصل القارىء الى قناعة تجعله الى جانب المتنبي فعلا ، اذ ان الشعراء المجيدين المشهورين لم يسلموا من المآخذ التي اخذها العلماء عليهم . فيعرض القاضي الجرجاني بعض اشعار القدماء ، ويحللها ليؤكد حقيقة تفاوت اشعار المجيدين منهم كأبي نؤاس ، وابي تمام من المحدثين مثلا اذ يذكر شواهد من اساءاتها ، وما اخذ عليهما ليعلن اخيرا ان قصده ليس الحط من شآن هذين الشاعرين وانما قصده تقرير المبدأ الذي عرضه وهو وجوب الاعتراف بوجود التفاوت في شعر الشاعر الواحد (اذ البغية فيه الاعتذار لابي الطيب لا النعي على ابي تمام وانما خصصت ابا نؤاس وابا تمام ، لاجمع لك بين سيدي المطبوعين . وامامي اهل الصنعة ، وأريك ان

---

(٦١) الوساطة ٤

(٦٢) نفسه

افضلهما لم يحمهما من زلل واحسانهما لم يصف من كدر . فأن انصفت فلك فيهما عبرة ومقنع . وان لججت فما تغني الايات والنذر عن قوم لا يؤمنون)(٦٣)

واذا كان الامر كذلك فيكون من حق المتنبي او القاضي الناظر في اشعار الا يوافق على آراء المتعصبين ضده لمجرد انهم احصوا عليه بعض المعايب والاخطاء فمن غير المعقول ان يطالب المتنبي مالم يطالب به غيره . فيسقط ديوانه ويعاب لوجود بعض الغلط فيه وهو امر لم يسلم منه شاعر قديما كان او حديثا .

ويورد الجرجاني بعد هذا جملة من شواهد شعر المتنبي الرائعة ومقطوعات من عيون قصائده . ليؤكد ماذكره من ان وجود بعض التعقيد والالفاظ غير المستحبة او الشواهد المعيبة الشاذة لا يمكن ان تمحو الكثرة الوافرة من جيد اشعاره .

واذا استوفى شرطه في وجوب العدل في النظر الى مجموع شعر الشاعر وابرز امامنا حقيقة كون مجموع شعر المتنبي لا يخرج عن اطار الجميل الرائع النادر عاد الى تهمة اخرى يوجهها خصوم المتنبي الى اشعاره فوقف عندها وقفة طويلة محللا ومفصلا ومستوفيا آراء من يسبقه الا وهي تهمة السرقة التي وقف عندها النقاد طويلا ...

السرقات الشعرية قبل الجرجاني

لقد اشار الشعراء الى السرقات الشعرية في معرض الفخر او الهجاء فهذا حسان بن ثابت يفخر بأشعاره . ويدعي لنفسه الابتكار فهو لا يسرق معاني من سبقه ولا يتكل على مقولة بعضهم في موافقة معانيهم لمعاني من سبقهم .

لااسرق الشعراء مانطقوا به
بلا لا يوافق شعرهم شعري

وقد تبادل الشاعران جرير والفرزدق تهمة السرقة الشعرية فيقول الفرزدق :

ان استراقك ياجرير قصائدي
مثل ادعاء سوى ابيك تنقل(٦٤)

---

(٦٣) الوساطة ٨٢
(٦٤) ديوان الفرزدق : ١ / ٧٢٢